إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ١٣٩١ش/كانون الأول ٢٠١٢م
صص ١٣٣ ـ ١٤٧

شخصية دِعْبِل الخُزاعِى من خلال التناقضات

يحيى معروف*

الملخص

قلما نجد شاعرا أو كاتبا شيعيا دافع عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه. هذا المقال يدرس تناقضات المؤرخين من خلال تعريفهم لدِعْبِل الخُزاعِى (الشهيد سنة ٢٤٦ق) فيحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ١. هل يمكننا الاعتماد على أقوال بعض المؤرخين للتعريف بشخصية دعبل الخزاعى رغم تناقضاتهم؟ ٢. هل للتعصب دور فى آرائهم وأقوالهم؟ ٣. هل هناک أقوال أخرى وردت فى كتبهم تنفى مزاعمهم فيما زعموا؟

يحاول الباحث عرض التُّهم التى أُلصِقَت بشاعرنا ثم الإجابة عنها مستخدما نفس الكلمات الواردة فى أقوال هؤلاء المؤرخين ويظلّ القصد من ذلک هو إلقاء المزيد من الضوء على تلک التهم والمقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارئ نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقى.

وللبحث فرضيات نحاول إثباتها وهى: ١. أقوال وآراء هؤلاء المؤرخين للتعريف بشخصية شاعرنا نابع عن حقد دفين. ٢. إنهم اضطرّوا لخلق التُّهم لإبعاد الناس عن الشيعة وشعرائهم. ٣. توجيه هذه التهم لم يكن إلا بأمر من سلاطين الجور.

الكلمات الدليلية: دعبل الخزاعى، المؤرخون، الشاعر الملتزم، آل بيت النبى (صلى الله عليه وآله وسلم).

*. جامعة رازى، كرمانشاه، إيران. (أستاذ مشارک) y.marof@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩١/٤/١هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩١/٩/٨هـ. ش

المقدمة

الذين دافعوا عن آل بيت نبينا المختار (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا أكثر الناس عرضةً لأنواع المخاطر كالقتل والتعذيب وتلطيخ السُمعة مثلما ورد فی أمهات المصادر العربية التی تتهم هؤلاء الشعراء بلؤم الطبع، والبخل، ودناءة النفس رغم ذلک احتفظت نفس المصادر ولو بقدر يسير، من صفاتهم السامية، وهذا القدر على قلَّته يكفی للتدليل على صحة ما ذهب إليه الباحث.

الدراسات السابقة

هناک كتب ومقالات عدة تلقی الضوء على بعض الزوايا من حياة دعبل الخزاعی ولكن لم نعثر على بحث شامل ينفی مزاعم المؤرخين فی التهم الموجهة إلى هذا الشاعر الملتزم الذی قدم النفس والنفيس فی الدفاع عن عقيدته السامية.

لاشک أنه قلّما نجد شاعرا أو كاتبا شيعيا دافَعَ عن النبیّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه نحو: (كان فاسداً)، (كان فاسقاً)، (كان رافضيّاً)، (كان كثير التعصب والغلو)، (كان ظالماً)، (كان أحمق)، (كان بخيلاً)، (كان كذوباً) وهكذا دواليک. وبالرجوع إلى تراجم هؤلاء الذين رُموا بالفسق والخيانة والحماقة والخروج عن الدين وغير ذلک، نجد من بين هؤلاء فريقاً كان معروفاً لدى الرواة بالصدق والوفاء والالتزام بالتقوى وجودة الشعر. ويظهر من أخبارهم أن هؤلاء الشعراء لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع حياة الظلم والاضطهاد، ومضوا يعيشون الحياة كأحرار غير مبالين بسلوک الطغاة والجبابرة وأوامرهم ونواهيهم.

ومنهجنا فی هذا البحث هو الكشف عن حقيقة أحد الشعراء الملتزمين من خلال أقوال المؤرخين فی نصوصهم التأريخية. ثم المقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارئ المنصف نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقی والرأی السليم. فالبحث يعرض جانبا من جوانب السلوک الاجتماعی، لدى دِعْبِل بن علیّ الخُزاعِی (الشهيد ٢٤٦ق) الذی دافع عن آل بيت النبی (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه ونفيسه.

يحاول الباحث عرض التُّهم التی أُلصقت به. ويظل القصد من ذلک هو إلقاء المزيد من الضوء على تلک الانتقادات التی تناقلها الرواة فی هذا الشأن. فالدراسة هذه

لاتسعى إلى إثبات التهم التى تناقلها الرواة عن دعبل أو رفعها عنه، بل هى إلمامة إخبارية قُصد من حصرها وإيرادها عرضها وإخضاعها للدراسة من خلال الموازنة بينها وبين ما نسب إليه. وهنا نلقى الضوء على حياة شاعرنا الفذّ:

ولد «دعبل» فى الكوفة سنة ١٤٨ق،(ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٧٠/٢؛ الخطيب البغدادى، ١٤١٧ق: ٨/ ٣٨١) ونشأ فيها. والمعروف أن هذه المدينة كانت تتصف بولاء معظم أبنائها لآل البيت (عليهم السلام). وقد عاصر تسعة من خلفاء العباسيين هم: المنصور [بدأت خلافته سنة ١٣٦ق] والمهدى، والهادى، والرشيد، والأمين، والمامون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل [انقضت خلافته سنة ٢٤٧ق] فهو ينتمى فى نسبه إلى قبيلة خزاعة المعروفة بولائها العريق للإسلام ولرسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولأهل بيته (عليهم السلام) فعبد الله بن بديل بن ورقاء، الجد الأكبر لدعبل، كان هو وأخوه عبد الرحمن رسولَى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن. وكانا وشقيقهم عثمان من فرسان جيش الإمام علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) فى صفين. قال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى: (١٤٠٧ق:١٣٢/٢٠) «كان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى علىّ صلوات الله عليه.» فترعرع فى أسرة موالية لأهل البيت (عليهم السلام) ، وعلى الرغم من كل الصور المشوهة التى نسجها بعض المؤرخين حول شخصيته، لم يستطع أحد أن يطعن فى عقيدته أو يتهمه بالانحراف عن ولائه لأهل البيت (عليهم السلام). فشعره يعكس وجهة نظره العقائدية فى فهم التشيع. وهنا نكتفى بما قاله ياقوت الحموى فى معجم الأدباء: (١٣٥٥ – ١٣٥٧ق: ١٩٦/٤) «قصيدته التائية فى أهل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدائح قصد بها على بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان.»

والآن نصل إلى تهم الرواة دعبلَ وما قيل عنه فى المصادر العربية فلنبدأ بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (٣٦٢-٢٨٤ق): هذا الكتاب من أهم ما وصل إلينا من كتب التراث العربى، واعتمد عليه معظم المؤلفين بعده، فكان أهم مصدر من مصادر تأليفهم فى الأدب والنقد والتاريخ والحضارة العربية بكافة جوانبها وعصورها منذ الجاهلية وحتى عصر مؤلفه. عبَّر عنه ابن خلدون فى مقدمته (١٩٦١م: ١٠٧٠) بقوله: وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعة جداً، منذ أن ظهر للناس أواسط القرن الرابع للهجرة ووصلت شهرته إلى الأندلس سريعاً، فبعث الحكم المستنصر إلى مؤلفه ألف دينار

عيناً ذهباً، وخاطبه يلتمس منه نسخة. فبعث إليه منه نسخة حسنة منقحة (ابن الأبار الأندلسى، ١٩٦٣م: ٣٠١/١) كما بعث بنسخة أخرى إلى سيف الدولة الحمدانى أمير حلب «فأنفذ إليه ألف دينار.» (ابن منظور، ١٩٦٥-١٩٦٦م: ١/١) ورغم هذه الشهرة الواسعة نقده الكثيرون فذكروا مواضع الخَلل والاضِطراب والتناقض فيه. (انظر: محمد خير شيخ موسى، ١٩٨٩م)

التهمة الأولى

ذكر ابوالفرج الأصفهانى بعد أن نسب إليه أوصافاً ممتازة كـ«شاعر متقدم مطبوع» (١٤٠٧ق:١٣١/٢٠) ثم تابع القول فقال: «هجَّاءٌ خبيثُ اللِّسان!!، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم.» وقال الخطيب البغدادى: (١٤١٧ق: ٢٤٦/٨) «وكان خبيثَ اللسِّان قبيحَ الهجاء.» وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ ق) فى وفيات الأعيان (١٩٦٨م: ٢٢٧/٢): «كان شاعرا مجيدا إلا أنه كان بذى اللسان مولعاً بالهجو والحطّ مِن أقدار الناس.» وقال أبو إسحاق القيروانى الحصرى (ت ٤١٣ق) فى زهر الآداب (لاتا: ٨٦/١): «كان دعبل مداحاً لأهل البيت عليهم السلام كثير التعصب لهم والغلو فيهم.»

وجوابه هو: أن فى سيرة دعبل ملامحَ مِن العزم والقوة والاستمرار على المبدأ فدعبل يختلف عن شعراء عصره الذين أكثروا شعر المديح فى الحكّام العباسيين، فهو كان يعبر بصراحة وصدق عما يراه ويشاهده من أحداث عاشها وعانَى منها الكثير، وكان يوجّه النقد الصريح للحاكمين دون خوف أو وجل، ممّا لوّن شعره بطابع الهجاء ولهذا أصبح محلاً للتجريح من قِبل البعض. لأنه كان شديد الموالاة لآل البيت (عليهم السلام)، متجاهراً فى ذلک، متعرضاً بالهجاء لكل من يناوؤهم. وقد تحمَّل فى سبيل ذلک كثيراً من المتاعب، واضطر إلى عبور الصحارى والفلوات هرباً ممن هجاهم من الخلفاء. قيل له: لماذا تهجو من تخشى سطوته؟ قال: «أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين سنة، فلست أجد أحداً يصلبنى عليها.» (الأصفهانى، ١٤٠٧ق:١٣٣/٢٠؛ ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٢٧/٢)

وأمــا أســباب هجاءه المقذع للخلفــاء الذين عاصرهم يعنی هارون الرشــيد، محمد الأمــين، المامون، المعتصم، والمتوكل ووزراء هؤلاء الخلفاء، دون أدنی شــک هذا دليل جرأتــه وإقدامه علی هجاء من يســتحق الهجاء، ولــو أدَّی ذلک إلی الصَّلب. فلم يكن هجاؤه للخلفاء والحاكمين عندئذ إلا بدافع العقيدة وموالاة أهل البيت (عليهم السلام). لأن الولاية لاتكون خالصة إلا بالبراءة ممن يضادها ويعاندها، كما تبرأ اللّهُ ورسولُه من المشــركين. وأما كلام أبی إســحاق القيروانی الذی ادعی أنه: «كثير التعصب لهم والغلو فيهم.» ليس إلا مجرد ادعاء لأنه لم يأت بنموذج ليثبت ادعاءه. فهذه الأقوال وما شابهها أطلقت علی الكثيرين من موالی آل البيت (عليهم السلام) علی مرِّ العصور.

التهمة الثانية

ذكر ابوالفرج سبب خروجه عن الكوفة قائلاً: (الأصفهانی، ١٤٠٧ق: ١٣٦/٢٠) «عن أبی خالد الخزاعی: كان سبب خروج دعبل بن علیّ من الكوفة أنه كان يتشطَّر ويصحب الشُّــطار [كان هذا الاســم يطلق علی أهل البطالة والفســاد فی أيام الدولة العباسية]، فخرج هو ورجل من أشــجع فيما بين العشــاء والعتمة، فجلســا علی طريق رجل من الصيارفة [مفردها الصيرفیّ: الذی يبدل النقود]، وكان يروح كل ليلة بكيســه إلی منزله، فلمّــا طلــع مقبلاً إليهما وثبا إليه فجرحاه، وأخذا ما فی كُمِّه، فاذا هی ثلاث رمانات فی خرقه، ولم يكن كيســه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانَه، واســتتر دعبلُ وصاحبُه، وجدَّ أولياء الرجل فی طلبهما، وجدَّ الســلطان فی ذلک، فطال علی دعبل الاســتتار، فاضطر إلی أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتی كتبتُ اليه أعلمه أنه لم يبقَ من أولياء الرجل أحدٌ!!»

وقد نسی أبوالفرج ما نقلها فی الصفحات السابقة من كتابه فذكرها مرة أخری بشكل آخر فيه تناقض عجيب فی كيفية قتل الصيرفیّ حيث قال: «...عن أبی خالد الأســلمی كان يتشــاطر بالكوفه وهــرب منها بعد ما قَتَلَ صيرفياً: أخبرنی الحســن بن علي قال حدثنــا ابن مهرويه قال حدثنی ابن الأعرابی عن أبی خالد الأســلمي قال: كان دعبل بن علی الخزاعی بالكوفه يتشــطر وهو شاب، ...وكان يصلت علي الناس بالليل فقَتَلَ رجلاً صيرفياً، وظن أن كيسه معه، فوجد فی كمه رماناً فهرب من الكوفة.» (الأصفهانی،

١٤٠٧ق: ١٤٥/٢٠)

وجوابــه هو: أننا نتوقع من القارىء المنصف ليقارن بــين ما قاله أبوالفرج نقلا عن رجل باســم «أبي خالد الأســلمی» فهو تارة يقول: «وثبا اليــه فجرحاه، وأخذا ما فی كُمِّــه..... .ومــات الرجل مكانَه»، ثم يقول: «فقَتَلَ رجلــاً صيرفياً.»؛ ولو فرضنا أن هذا الخبر صحيحاً فهل مات هذا الرجل طبيعياً كما يموت الإنسان فی بيته أو فی الطريق؟ أم قَتَلَــه دعبل؟! فأيُّ قول مــن الأقوال يعتبر صحيحاً؟ لأنه كما ذكر الأصبهانی: مرة هجم عليه الرجلان فمات الرجل مكانَه إثر جرح طفيف!! ومرة أخرى ينســی ما قاله سابقاً فيقول: «قَتَلَ صيرفياً» بنفســه! فهل كان دعبل شريكاً فی الموت أو قتله بنفسه للوصول الی كيسه؟!!

ومما لا شــک فيه أن مصــدر الروايات التی قيلت فی دعبل كلهــا واحدة وهو «أبو خالد الأســلمی»، والظن أن طابع الوضــع عليها واضح بقصد تلطيخ سمعته. وكما يظهر عن كلام "أبی خالد» إنه كان شديد التعصب علی دعبل بل يمكننا نعتبره من ألد خصامه فمن الطبيعی أن يسعی وراء هذه الأكاذيب. فخير مثال علی هذا هو ما ورد فی الأمثال الفارسية حيث يقال: «إن الكذّاب تقلُّ ذاكرتُه.» والآن نلفت انتباهكم إلی ما قاله أبو الفرج عن حضور الشــاعر لدی الإمام الرضا (عليه الســلام) وبكاء الإمام إلی درجة الإغماء وإعطائه عشــرة آلاف درهم وحلیّ كثــير وثوباً من ثيابه، وإنه كيف امتنع عن بيع الثياب مقابل دفع مبالغ باهظة من قبل أهالی مدينة قم المقدســة. فهل يعقل للإنسان اللبيب أن يخطر بباله أن دعبل هجم علی صيرفیّ طمعاً لسرقة أمواله؟!!

قــال أبوالفــرج الأصفهــانی (١٤٠٧هـــ:١٦٢/٢٠)؛ وقــد ذكرهــا أيضــاً فی (١٤٠٧هـ:١٣٢/٢٠) فضلاً عن ذلک ورد فی تاريخ مدينة دمشــق لابن عســاكر (لاتا: ٢٦٢/١٧) «...قال [دعبل]: دخلت علی علیّ بن موسی الرضا –عليهما السلام – فقال لی: أنشدنی شيئاً مما أحدثتَ، فأنشدتُه:

مَدارسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تلاوَةٍ　　　ومنزلُ وحیٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

حتی انتهيتُ إلی قولی:

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلی واتريهم　　　أكُفّاً عنِ الأوتارِ منقبضات

قال: فبكى حتى أُغْمِى عليه، وأومأ إلى خادم كان على رأسه: أن أسكت، فسكتُّ ساعةً، ثم قال لى: أعِدْ، فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضا، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى، وأومأ الخادم إلىَّ: أن اسكت، فسكتُ، فمكث ساعة أخرى ثم قال لى: أعد، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لى: أحسنت، ثلاث مرات، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضُرِبَ باسمه، ولم تكن دُفِعَتْ إلى أحد بعدُ، وأمر إلى مَنْ فى منزله بحلىّ كثير أخرجه إلىّ الخادم، فقدمتُ العراق، فبعتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منى الشيعة، فحصل لى مائة ألف درهم، فكان أول مال اعتقدته. يستوهب الرضا (عليه السلام) ثوباً لبسه ليجعله فى أكفانه: قال ابن مهرويه وحدثنى حذيفة بن محمد: أن دعبلاً قال له: إنه استوهب من الرضا عليه السلام ثوبا قد لبسه فى أكفانه فخلع جبة كانت عليه، فأعطاه إياها وبلغ أهل قم خبرها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه فى طريقه، فأخذوها منه غصباً، وقالوا له: إن شئت أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم. فقال لهم: إنى والله لا أعطيكم إياها طوعاً، ولاتنفعكم غصباً، وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام. فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين الألف الدرهم وفَرْدَ كُمٍّ من بطانتها فرضى بذلک.»

التهمة الثالثة

٣. قال أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٤٩/٢٠) «كان دعبل يخرج فيغيب سنين، يدور الدنيا كلها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشراة [الخوارج] والصعاليک يلقونه فلايؤذونه، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه، وكان إذ لقيهم وضع طعامه وشرابه، ودعاهم إليه،... وسقاهم وشرب معهم، وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه، وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه.»

وجوابه هو: أن غيابه عن الناس وتجواله هنا وهناک فراراً من حكام الجور أو لكسب لقمة العيش فهو أمر طبيعى لأنه كان يلتقى لدى جولته بالخوارج واللصوص فهم كانوا يزورونه ولايصيبونه أذى فهم يؤاكلونه ويشاربونه وهو أيضاً عندما كان يبسط مائدته يستدعيهم لتناول الطعام معه. هذا إن لم يكن حسناً فليس بعيب لأنه يدل على سجاياه الأخلاقية بعبارة أخرى جذب إليه حتى اللصوص والخوارج رغم الاختلاف

بينهم فى الأفكار والاعتقادات.

التهمة الرابعة

قال أبوالفــرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٣٧/٢٠) «... عــن أبى خالد الخزاعى قائلاً قلــت لدعبل: ويحک قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوادَ ووَترْتَ الناس جميعاً [أصبح لهم عندک وتر؛ والوتر: الثأر]، فأنتَ دهرَکَ كلَّهُ شــريد طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفتَ هذا الشَّــرَّ عن نفســک! فقال: ويحکَ؟ إنى تأملتُ ما تقول، فوجدتُ أكثــر الناس لايُنْتَفَعُ بهم إلا عَلَى الرَّهْبَةِ، ولايُبالَى بالشَّــاعرِ وإنْ كانَ مُجيداً إذا لَمْ يُخَفْ شَــرُّهُ، ولَمَنْ يَتَّقِيکَ عَلَى عِرْضِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَرْغَبُ إليک فى تشــريفِهِ. وعُيوبُ النَّاسِ أكثرُ مِنْ محاسِــنِهِمْ، وليس كلُّ مَنْ شَرَّفْتَهُ شَرُفَ، ولا كل من وصفتَهُ بالجود والمجد والشجاعة ولم يكــن ذلک فيه انتفع بقول، فاذا رآکَ قد أَوْجَعْتَ عِرْضَ غيره وفضحتَهُ اتَّقَاکَ عَلَى نَفْسِــهِ وخافَ مِنْ مِثْلِ ما جَرَى على الآخر. وَيْحَک، يا أبا خالد إن الهجاءَ المُقذع آخذٌ بِضبعِ الشاعر مِنَ المديحِ المُضْرِعِ. فَضَحِكْتُ مِنْ قولِهِ، وقلتُ: هذا والله مقالُ مَنْ لايموتُ حَتْفَ أَنْفِهِ.»

وجوابه هو: أن كلام «أبى خالد الخزاعى» أشــبه بحكاية مضحكة لأن الذى يســير وراء المنافع المادية لايُلْقى بنفسه إلى التهلكة عن طريق هجو الملوک والخلفاء والوزراء لكسب الثروة فهو لو كان ماديا لمدح الممدوحين فلم يهج أحدا هجوا مقذعا. وإذا كان يقصد من وراء هجوه اكتســاب المال لم يقل: «أنا أحمل خشــبتى على كتفى منذ خمسين ســنة، لست أجدُ أحداً يصلبنى عليها.» (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ٢٠/ ١٣٣) إنه كان يعلم أن هجــو الظالمين والمســتكبرين لأجل الدين يؤدى إلى استشــهاده رغم ذلک لم يخف منهــم مــادام حياً. فضلاً عن ذلک إذا كان غرضه كســب المال لــكان بمقدوره أن يضع لســانه فى ســوق الارتزاق كما فعل غيره، ولو فعل ذلک لفاق أقرانه وجمع أموالاً هائلة لايمكن حصرها، ولكنه أبى إلا أن يضحّى بالغالى والنفيس من أجل عقيدة كان يناصرها ضمــيره، وليس هناک مجال للتظاهر بالتشــيّع مادام التشــيّع محارَبــاً من قبل الحكومة العباســية. هــو كان يعرف جيداً أن مــن يتكلم عن مناقب الوصى يُقطع لســانه ويُمزق ديوانه. فلذلک ألزم أئمة الشــيعة التقية على شــيعتهم حفظاً على دمائهم التى استحلها

أولئک المجرمون الذين خلقوا للجريمة والإساءة إلى الناس، ولولا التقية لما بقى للشيعة اســم ولا رسم. لقد شدد الأئمة الطاهرون على شيعتهم بكتمان إيمانهم وإخفاء عقيدتهم حفظا لدمائهم وإبقاءا على وجودهم.

التهمة الخامسة والجواب من دعبل نفسه:

قال أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٩٦/٢٠) «يُتَّهم دعبل بشــتم بنت عبد المطلب [عليهما السلام] فيهرب وينكر التهمة: أخبرنى الحسن بن علىّ قال: حدثنا ابن مهرويه قال: حدثنى أبى قال: قَدِمَ دعبلُ الدينورَ، فجرَي بينه وبين رجل من ولد الزبير بن العوام كلامٌ وعربدةٌ على النبيذِ، فاســتعدى على عمرو بن حميد القاضى، وقال: شــتمَ [دعبل] بنــتَ عبــد المطلب، واجتمع عليه الغوغاء، فهرب دعبــل، وبعث القاضى إلى دار دعبل فــوكل بها وختم بابــه، فوجَّهَ إليه برُقْعَةٍ فيها: ما رأيتُ قــطُّ أجهلَ منک إلا مَن وَلَّاک، فأنــه أجهلُ، يقضــى فى العربدة على النبيذ، ويحكم على خصم غايب، ويقبل عقلک أنى رافضى شتم صفية بنت عبد المطلب. سخنت عينک، أفمن دين الرافضة شتم صفية؟ قال أبى: فسألنى الزبيرى القاضى عن هذا الحديث فحدثته، فقال: صدق والله دعبل فى قوله، لو كنت مكانه لوصلته وبررته. هذه القضية وما شابهتها جعلته يفر من الناس حيث قال شــهاب الدين أحمد، المعروف بابن عبد ربه فى كتابه العقــد الفريد (١٩٩٠م: ٢٨٩/٢): «وقيل لدعبل الشاعر: ما الوَحْشة عندک؟ قال: النَّظرُ إلى الناسِ!!»

التهمة السادسة

ذكــر أبو بكــر أحمد بن علىّ الخطيب البغــدادى (ت ٤٦٣) فى كتابــه تاريخ بغداد: (١٤١٧ق: ٢٤٥/٨) «أنبأنا أبو على محمد بن الحســين بن محمد الجازرى حدثنا المعافى بن زكريا حدثنا محمد بن يحيي الصولى حدثنا محمد بن موســى بن حماد قال سمعت على بن الجهم وقد ذَكَر دعبلاً فكفَّرَهُ ولَعَنَهُ وقال كان قد أغرى بالطعن على أبى تمام وهو خير منه ديناً وشعراً... .»

وجوابــه هو: عندما ينظر المنصف إلى تكفير علىّ بن الجهم ولعنه لدعبل يخطر بباله مظلومية هذا الشاعر الملتزم فإنه بمجرد أن طعن على أبى تمام أصبح كافراً وملحداً حيث

يســتحق التكفير واللعن مع أننا نجد الكثيرين من الشــعراء طعنوا الآخرين فلايوصف أحدهــم بهذه الصفات؛ فضلاً عن ذلک لم يكن أبو تمام معصوماً عن الذنوب كى لايقدر أحد أن ينقده.

التهمة السابعة

إساءة دعبل إلى من أحسن إليه. قال عنه أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق: ١٣١/٢٠) «لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلتَ منه كبيرُ أحدٍ.»

وقــال أيضاً: (الأصفهــانى، ١٤٠٧ق: ١٩٥/٢٠) «كتب [المأمون] إلى أبى أن يكاتبه [دعبــل] بالأمــان، ويحمل إليه مالاً. وإن شــاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شــاء فليفعــل. فكتب إليه أبى بذلک، وكان واثقاً به، فصــار إليه، فحمله وخلع عليه، وأجازه وأعطاه المال، وأشــار عليه بقصد المأمون ففعل. فلما دخل وســلَّم عليه تبسم فى وجهه، ثم قال أنشدنى:

مدارس آيات خلت من تلاوة　　　ومنزل وحى مقفر العرصات

فجــزع، فقــال له: لک الأمان لاتخــف، وقد رويتها ولكنى أحــب سماعها من فيک، فأنشده إياها إلى آخرها والمأمون يبكى حتى أخضل لحيته بدمعه، فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به... .»

وجوابــه هو: أنه لم يكن قليل الوفاء، ولم يضلّه المال كما أضلَّ غيره من قبل، وحين هجا أولئک الذين أكرموه وأحسنوا إليه كالرشيد والمأمون مثلاً، فلأنه كان يفهم جيداً أن ذلک ليس إحســاناً قبل أن يكون وسيلة لشراء الضمائر والتسلط على ألسنة الشعراء. فهجــاؤه لمناوئى آل البيت (عليهم الســلام) لم يكن بدافع شــخصى أو مادى قط، وإنما كان بدافــع العقيــدة الذى يملى عليه ذلک، بغضّ النظر عن ســوء النتائج أو حســنها، وقــد أصــرّ على ما هو عليه دون أن يتردّد أو يقلّ مــن عزمه حدّ. إنه كان يعرف جيدا أن المأمون يتظاهر بالتشــيع فخير دليل على ذلک هو استشــهاد الإمام على بن موسى الرضا (عليهما الســلام) بأمر منــه فبديهى أن لايأبه دعبل بعطاياه ولايهمه إحســانه. ولذلک نجد فى هجاءه للمامون هدنة ولعل من أحد أســباب تلک الهدنة موضوع ولاية

العهد التى قبلها الإمام الرضا (عليه السلام)، وسبب آخر من أسباب تلك الهدنة ما تظاهر به المامون من حب آل البيت (عليهم السلام) والعطف على أشياعهم ومحبيهم. فبدا واضحا لذوى البصائر النافذة أن ما فعله المامون لم يكن إلا سياسة مرحلية لدعم جبهته فى صراعه المحموم على الحكم سياسياً وعسكرياً مع أخيه الأمين. لأن المنافقين من الشعراء كانوا يحرّضون المأمونَ على دعبل، ولكن المأمون كان يفهم جيداً ما يجب أن يتخذه لتثبيت مركزه وحاكميّته، فكيف يقتل شاعراً معروفاً بولائه لأهل بيت الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وعلى مرأى من الناس، لذا أعطى لدعبل الأمان رغم أنه هجا المأمون بقوله: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٦٧/٢؛ ابن عساكر، لاتا: ٢٦٣/١٧؛ الأبشيهى، ١٢٧٢ق: ٣/٢)

إنى مِنَ القوم الذين سيوفهم قتلتْ أخاكَ وشرَّفَتْكَ بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خمولِهِ واستنقذوك من الحضيض الأوهد

أشار دعبل فى هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخزاعى وحصاره بغداد وقتله الأمين محمد بن الرشيد وبذلك ولى المأمون الخلافة والقصة مشهورة ودعبل خزاعى فهو منهم وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٦٧/٢) «قَبَّحَ اللهُ دعبلاً فما أوقَحَهُ كيف يقولُ عنى هذا وقد وُلِدْتُ فى حجر الخلافة ورضعتُ ثديها وربيتُ فى مهدها.» ولكن لما مات المأمون خلفه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم سنة ٢١٨ق، فطاردَ الطالبيينَ ونَكَّلَ بهم وكان دعبل يرى فى المعتصم خصماً عنيداً وعدواً لايمكن تركه، فأكثر به الانتقاد اللاذع والهجاء. وكان يطلبه دائماً ليفتك به ويتخلص من لسانه فوضع عليه الجواسيس وعندما بلغ دعبل أن المعتصم يريد قتله هرب. فهو لايرى شرعية الخلافة فى المامون أو المعتصم، بل كان يحصرها فى أهل بيت النبى (صلى الله عليه وآله وسلم). فلذلک نلاحظ أنه يتخذ أشعاره سلاحاً فى عقاب الحكّام العباسيين لإظهار مساوئهم ومعايبهم وحقائقهم التى يخفونها وراء أقنعتهم كما قال فى قبر الإمام الرضا (عليه السّلام) وإلى جواره قبر هارون الرشيد الذى انمحى أثره واندرس. (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ١٩٤/٢٠؛ ابن عساكر، لاتا: ٢٣٣/٥ ؛ المرزبانىّ، ١٤١٣ق: ٩٤)

أربِعْ بطوسٍ علي القبر الزكيّ إذا ... ما كنتَ تُربع من دينٍ علي وطَـرِ
قبرانِ فى طوس: خير الناسِ كلِّهِمُ ... وقـبـر شـرِّهُـمُ.هذا مِن العِبَـرِ
ما ينفعُ الرجسَ من قُربِ الزكيِّ ولا ... علي الزَّكيِّ بقُربِ الرِّجْسِ مِن ضررِ

وقـال فى خلفاء بنى العباس مصـوّراً ما هم عليه من مطـاردة لأهل البيت (عليهم السلام) وتعذيب ونهب وتقتيل. (نفس المصادر)

قتـل وأسرٌ وتحريـقٌ ومنهبةٌ ... فعلَ الغُزاةِ بأرضِ الروم والخَزَرِ
أري أميّـة معذورين إن قَتَلُوا ... ولا أرى لبنى العباس من عُذُرِ

فهو يعذر بنى أمية فى أفعالهم حيال بنى هاشـم لأنهم يبغضونهم ويخالفونهم فى الدين والسياسـة، ولكنه لايرى لبنى العباس من عذر فقد ناصرهـم العلويون فى قيام دولتهم ونجـاح ثورتهم، وكانوا يحقـدون على بنى أمية لتقتيلهم آل البيت (عليهم السـلام) وما قاموا إلا لأخذ الثأر الذى رفعوه شعاراً ولكنهم فاقوا ما فعله الأمويون.

قيـل للوزير محمد بن عبـد الملک الزيات: لم لاتجيب دعبلا عن قصيدته التى هجاک فيها؟! «قال: إن دعبلاً قد نَحَتَ خشـبته وجعلها علـي عنقه يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ ثلاثين سنة وهو لايبالى ما قال هؤلاء وما فُعِلَ له.» (ابن المعتز، ٢٠٠٩م: ٢٦٥)

ولا شـک أن دعبل كان يهجو العباسـيين ويفشـى سلوكهم السـيىء تجاه الناس. فهـو يصف "خلفاء"!! بنى العباس بملوک بنى العباس. حيـث ذكر أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٥٧/٢٠؛ الخطيـب البغـدادى، ١٤١٧ق: ٣٧٩/٨) «كان المعتصم [محمد بن هارون ثامن الملوک العباسيين الحكم سنة ٢١٨ق] يبغض دعبلاً لطول لسانه، وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل، وقال يهجوه: (الأصفهانى، ١٤٠٧ق:١٥٨/٢٠)

وقامَ إمامٌ لم يَكُنْ ذا هِدايةٍ ... فليسَ له دِينٌ وليس لَهُ لُبٌ
مُلوکُ بنى العباسِ فى الكُتْبِ سَبْعَةٌ ... ولَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثامِنٍ لَهُم كُتْبُ
كذلکَ أهلُ الكَهْفِ فى الكَهْفِ سَبْعَةٌ ... خِيارٌ إذا عُدُّوا وثامِنُهُمْ كَلْبُ»
وإنى لأعلى كلبهم عنک رفعة ... لأنک ذو ذنب وليس له ذنب

فكان دعبل نفسـه فى صميم المعارضين لخلافته وحكمه، ولا سـيما مع تصاعد كره

المعتصم لشـيعة آل البيت (عليهم السـلام) ومحبيهم، ولم يكن دعبل ليسكت عن كل هذا الحيف الذى ألحقه المعتصم بالمسلمين الشيعة. مرة أخرى يهجو المعتصم والواثق [الواثق بالله هارون بن محمد المعتصم هو تاسـع الملوك العباسـيين، حكم لخمس سنين، تمتد من ٢٢٧ حـتى ٢٣٢ق] حين علم نعى المعتصم: (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ١٦٠/٢٠) «... كنت مع دعبـل بالصيمرة وقد جاء نعى المعتصم وقيام الواثق، فقال لى دعبل: أمعك شـىء تكتب فيه؟ فقلت: نعم، وأخرجت قرطاسا، فأملى على بدئها:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ ولا عزاء اذا أهل البلا رَقَدُوا
خليفةٌ ماتَ لم يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وآخَرُ قامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحدٌ
فمَرَّ هذا ومَرَّ الشؤمُ يتبعُهُ وقام هذا فقام الظلمُ والنكدُ

استشهاده:

كما مرَّ سابقاً كان العبّاسيّون أشدّ كرهاً للعلويّين من الأمويّين وأعظم بغضاً، فأمعنوا فيهم قتلاً وحرقاً، واضطهاداً وتعذيباً. فمن ذكر عليّاً سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، وكان البـلاء يشـتدّ على العلويّين يومـاً بعد يوم. فمن دفن النـاس أحياء إلى الصلب إلـى الحرق إلى الحبـس ومنع الهـواء والأكل والماء عن المحبوس، حتّـى يقضى نحبه جوعاً وعطشـاً. (انظر: الكيلانى، لاتا: ٢٢) فقُتل أنصار علىّ (عليه السلام) فى كلّ قطر وكلّ مصر وعُذّبوا تعذيباً مرّاً، قطعت منهم الأيدى والأرجل. فلم يسـتثن شـاعرنا عن مؤامراتهم فهو بعد ما هجا مالك بن طوق هرب إلى البصرة فبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً، وأعطاه سماً وأمره أن يغتاله كيف يشاء، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم، فلم يزل يطلبه حتى وجده فى قرية من نواحى السوس، فاغتاله بعد صلاة العشاء، فضرب ظَهْرَ قدمه بعكازٍ مسـموم فمات من غد، ودفن بتلك القرية. وقيل بل حمل إلى السـوس، فدفن فيها. (ابن عسـاكر، لاتا: ٢٧٧/١٧ ؛ الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ٢٠٠/٢٠) وأما ترديد ابن عساكر فى تاريخه (لاتا: ٢٤٢/٥) بعد ذكر وفاة دعبل سنة ٢٤٦ق وقوله: [قيـل: إنه هجا المعتصم فقتله .وقيل: إنه هجا مالك فأرسـل إليه من سمه بالسـوس] ترديد بلا تأمل، إذ المعتصم توفى سنة ٢٢٧ق قبل شهادة دعبل بتسع عشرة سنة. كما أن ما ذكره الحمـوى فى معجم البلدان (١٣٥٧ق: ٤١٨/٤) من [أن دعبلاً لما هجا المعتصم

أهدر دمه فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد فلم يجره المعتصم وقتله صبراً في سنة ٢٢٠ق] خلاف ما اتفق عليه المؤرخون وعلماء الرجال من شــهادته سنة ٢٤٦ق. (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/٢٧٠؛ الخطيب البغدادى، ١٤١٧ق: ٣٨١/٨)

النتيجة

١. فى تلك النماذج التى عرضناها ما يمكن اعتباره شــاهداً على تعصب المؤرخين. ومع الرغم محاولة بعض مؤرخى الأدب العربى وبتحريض من (الســلطان) لطَمْسِ معالم شــخصية هذا الشاعر الشــهيد وآثاره وشــعره، فلقد حفظ لنا المنصفون من المؤرخين والباحثين شــذرات من كلمات نظمها شــعرا، فبقيت خالدة حتى يومنا هذا، تشير إلى الحق والخير والفضيلة.

٢. تبين لنا من سيرة شاعرنا أنه مطبوع علي الخير، يغلب علي أشعاره الهجاء لحكام الجور؛ واشــتهر بالهجاء فى عصر كان يعتبر فيه الهجاء جريمة يعاقب عليها فاعلها. فهذا النزر اليسير من شعره الذى وصل إلينا عن طريق هذه المصادر فيه دلالة على أن روح التقوى والصدق ظلت تسيطر على تصرفاته.

٣. كان دعبل شيعياً، وكان تشيعه معتدلاً معقولاً، لا غلوّ فيه ولا إسراف. فامتاز عن شعراء عصره بأنه كان جريئاً غاية الجرأة، وكان إذا ضرب لا يتهاون فى ذلک، وإذا هجا فلا يهمه أن يكون هجاؤه فى خليفة أو غير خليفة وما ذلک إلاّ لصدق نيّته وشــجاعته وإيمانه وصلابة عزيمته.

٤. فى القليل من الشواهد التى عرضنا لها من أخباره وأشعاره ما يكفى للتدليل علي حبه للإســلام وأهله. لأنه كان يتناول فى شــعره حق آل البيت عليهم السلام الذين كان يؤمن بحقهم الصريح، فهجاؤه للحكّام العباسيين يُثبت بكل صدق ووضوح تلک الطاقة وتلک القوة الكامنة فى نفس هذا الشاعر الثائر.

٥. من خلال العرض الســابق لسيرة شاعرنا تبين أنه لم يعدل من مواقفه ولم يستطع أن يتقيــد بحدود المســتكبرين أو أن يمتثــل لأوامرهم ونواهيهم. فهــو كما يبدو قد طبع علي الخير وكلف به وانصرف إليه وقد وجد فى الشعر متنفساً له يعبر فيه عن مكنوناته القلبية، وسخطه على قيم الظالمين.

المصادر والمراجع

ابن الأبار الأندلسی. (١٩٦٣م). الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. الطبعة الأولی. القاهرة: لانا.

ابن المعتز. (٢٠٠٩م). طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. مصر: دار المعارف.

ابن خلدون. (١٩٦١م). مقدمة ابن خلدون. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب اللبنانی.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبی بكر. (١٩٦٨م). وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة.

ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد. (١٩٩٠م). العقد الفريد. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن عساكر، علی بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعی. (لاتا). تاريخ دمشق. ثمانين مجلداً. بيروت: دار الفكر.

ابن منظور المصری. (١٩٦٥-١٩٦٦م). مختار الأغانی. القاهرة: تحقيق الأبياری.

الأبشيهی، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد. (١٢٦٨-١٢٧٢ق). المستطرف فی كل فن مستظرف. القاهره: مطبعة بولاق.

الأصفهانی، أبو الفرج. (١٤٠٧ق.١٩٨٦م). الأغانی. الشرح والهوامش د. عبدالله علی مهنا. بيروت: دارالفكر.

الخطيب البغدادی، أبی بكر أحمد بن علی. (١٤١٧ق). تاريخ بغداد أو مدينة السلام. الطبعة الأولی. تحقيق مصطفی عبد القادر عطا. بيروت: دارالكتب العلمية.

الزّركلی الدمشقی، خير الدين بن محمود بن محمد بن علی بن فارس. (١٩٩٢م). الأعلام. الطبعة العاشرة. بيروت: دار العلم للملايين.

القيروانی أبو إسحاق ابراهيم بن علی الحصری. (لاتا). زَهرُ الآداب وثَمَرُ الألباب. تحقيق محمد محيی الدين عبدالحميد. مصر: المطبعة الرحمانية.

الكيلانی، محمّد السّيد. (لاتا). أثر التشّيع فی الأدب العربیّ الطبعة الأولی. القاهرة: لجنة النشر للجامعيّين.

المرزبانیّ. (١٤١٣ق). أخبار شعراء الشيعة. الطبعة الثانية. بيروت: شركة الكتبی.

ياقوت الحموی. (١٣٥٥-١٣٥٧ق). معجم الأدباء. مصر: مطبعة المأمون.

المجلات

محمد خير شيخ موسی. (١٩٨٩م). مجلة التراث العربی. «مواطِن الخَلل والاضِطراب فی كتاب الأغانی». العدد ٣٤، كانون الثانی.